قراءة بعض الكتابات الشرقية وتفسيرها

للاب س. رتر فال اليسوعي (تابع لما سبق ص ٣٢ – ٣٩)

الكتابة العربية الرابعة

(طولها نحو ٣٠ سنتيمترًا في ٤٠ س مرضًا)

هذه الكتابة كالسابقتين والتاليتين من هدايا حضرة الاب لامنس اليسوعي اخذ حديثًا رسمها الطبعي على الورق في بيت من بيوت بعلبك. ولا نرى حاجة الى التطويل في ايراد خواص هذا الاثر لشبهه الواضح بالكتابة العربية الثالثة (طالع صورتها في ما سبق (٣: ٣٨) فكأنَّ يدًا واحدة نقشتها. ولذا لا نرتاب في ان تاريخ هذه قريب من تاريخ تلك ولو لم يبقَ على الحجر سوى بدء لفظة « السنة ». اما مضمون الكتابة فكما يلي:

١ ؟.... تو [فـ]ي ... ٢ حُسَين ابن ابو الحسَن ... ٣ السـ ؟ ... ا [ر]ي رَحمَهُ الا[ه ورضيَ] عنهُ في رجب .؟. سـ[ة] ....

وليس في هذا النص شيء جديد بالذكر سوى غلطتَيه اعني بهما « ابن » و « ابو » وهما كثيرا الورود في الكتابات العربية على ما مرَّ الاشارة اليه. ومما نأسف لهُ عجزنا عن قراءة الكلمة الاولى في السطر الثالث وهي بلا مراء اسم منسوب كان من حقه ان يطلعنا على مسقط رأس المتوفى او نسبه او غير ذلك من اطوار حياته. واما الالفاظ الاخرى التي لم نقدر على فكّ رموزها لسوء حال بقايا احرفها فنسأم قراءتها الى حذاقة القارئ اللبيب

الكتابتان الخامسة والسادسة

رأينا ورأي الاب لامنس انَّ لهاتين الكتابتين اهمية معتبرة وقد اخذهما حضرتهُ برسم الطبع الجيد المتقن في مدينة حمص عن حجرين ضريحيَّين نُقلا اليها من تنورين (في قضاء الحصن). وكلا الحجرين على شكل جَتلون (en dos d'âne) رُسم على احد جانبيه كتابةٌ تاتئة الاحرف يبلغ نتوها نحو نصف سنتيمتر. وطول الكتابة الخامسة ٥٢ س وطول السادسة ٥٩ س

ومضمون الكتابتين كامل لا ينقصهُ سوى نقطة في افتتاح الاولى:

(الكتابة الخامسة) — ١ً [ت]ف الي رحمت (عوض رحمة (١) الله على ٢ً ابن محمد الكنوزه ٣٢١

(الكتابة السادسة) — ١ً تفة (عوض تفت) الى رحمت (رحمة) الله ٢ً هدل بنت عصمن (عوض عثمن) ٣٢١

ولنا في هذا النصّ ملاحظات عديدة · نقول:

١ً لا ريب في ان الناقش لم يكن من ذوي المعارف الواسعة فانهُ غلط في بعض المواضع كما رأيتَ · غير انَّ الاغلاط لا تخلو من فائدة في بعض الاحوال فان كتابة « عصمن » عوض « عثمن » تخبرنا جليًّا ان اهالي بلاد الحصن كانوا يلفظون الشاء او بالحري السين صادًا في اسم عثمان في مطاوي القرن الرابع للهجرة · ولسنا نستغرب هذا اللفظ اولًا لان السين لا يمكن عادةً لفظها الخالص كلما يتقدّمها حرف حلقي مُفخَّم كالعين المحركة بالضمّة · ثانيًا لان معاصرينا من اهل حمص وجوارها يلفظون نفس هذا العلَم كما كان يلفظهُ سلفاؤهم منذ الف سنة (٢

٢ً مما لا يفوت الخبيرين بالعاديات العربيَّة انَّ رسم تاريخ الهجرة بالارقام لا وجود لهُ في الكتابات العتيقة المكتشفة الى ايامنا هذه الّا نادرًا (راجع CIA, p. 15, 120)

٣ً لا مرية ان خط الاثرين اللذين نحن بصددهما يُحسب من النسخي وان كان لهُ بعض الشبه بالكوفي القديم · وشكل الحروف اتقن في الكتابة الخامسة منهُ في السادسة حيث ترى فصلًا غريبًا بين النون والتاء في اسم بنت · وزد ان الناقش لم ينسَ شيئًا من نُقط الحروف المعجمة (٣ · وكل ذلك عزيز الوجود في الكتابات العربيَّة المعروفة الى هذه الغاية والمنتمية الى القرن الرابع للهجرة - لا بل نظنُّهُ واردًا هنا لاول مرَّة (٤

---

١) ومثل هذا الغلط قد ورد في كتابة ميلي نصبهُ عبد الملك بن مروان في جوار القدس الشريف (راجع V. Berch.: *Inscript. arab. de Syrie* p. 419, pl. I)

٢) ان صاحب الكتابة هو الذي اشار الى هذا اللفظ لحضرة الاب لامنس

٣) لا يُحسب غلطًا وضع النقطتين تحت الياء في كلمة الى

٤) انما ترتأي هذا الراي لان العلامة فان بركم لم يذكر شيئًا من هذا الجنس في ما اطّلعنا عليهِ من مجموعاتهِ النفيسة · لا بل اظهر رأيهُ جهرًا في عدَّة مواضع من تصانيفهِ المتيرة قائلًا ان الخط المعروف بالنسخي لا وجود لهُ في كتابات سوريَّة ومصر قبل القرن السادس للهجرة (طالع مثلًا J A 1891² p. 69 seq., *Inscript. arab. de Syrie* p. 452-4.)

٤ بقي علينا ان نتكلّم عن اربع لفظات وردت في هاتين الكتابتين اي « الكنوزه وهدل وتف وتفة ». فنقول في :

(الكنوزه) انهُ لا شك في وجود الواو بعد النون في الكتابة وان لم تأتِ فيها واوٌ اخرى ترشدنا الى معرفة هيئتها الخصوصيَّة الدقيقة. ولنا على صحَّة رأينا دلالة واضحة في البياض الباقي في رأس الحرف. لكنَّا لا نتجاسر على شرح معنى هذا اللقب المنقول عن صفةٍ رغمًا عن شيوع مادَّة ك ن ز في لسان العرب. وما لا ريب فيهِ ايضًا ان الناقش لم يعجم الحرف الاخير بل رسم العلَم كما كان يُلفظ تمامًا اي « الكنوزَه »

(هدل) هو علم مؤنث لم نقف عليهِ في امهات اللغة القديمة. غير انهُ قد ورد في السيرة النبويَّة (ص ١٣٥). قال ابن هشام: « قال ابن اسحق وحدَّثني عاصم بن عمر ابن قتادة عن شيخ من بني قريظة قال: قال لي هل تدري عمَّ كان اسلام ثعلبة بن سَعية وأُسيد بن عُبيد نفرٍ من « هدَل » اخوة بني قريظة كانوا معهم في جاهليَّتهم..» اه ولا يخفى ان اسماء القبائل كثيرًا ما تكون مؤنثة الجنس (١

(تف وتفة) لا حاجة الى القول بان التاء المربوطة هنا تنوب مناب الضمير المؤنث المتصل بفعل (تف). لكن اي فعل أُريد رسمهُ ؟ نجيب ان كلمة توفي شائعة في لغة العرب عند ذكر موتاهم وهي كما لا يخفى ترد تارةً على صيغة المتعدي اي توفَّاهُ الله بمعنى قُبضت روحهُ وطورًا على صيغة المجهول اي تُوُفِّيَ بالمعنى عينهِ. وكثيرًا ما يضاف الى المجهول « الى رحمة الله » فيكون المعنى « قُبضت روحهُ ونُقلت الى رحمة الله » وكل ذلك معروف يُستعمل في تصانيف العرب وكتابات مقابرهم. فلا شك اذًا انَّ الناقش لم يقصد الَّا رسم تلك العبارة (٢ . وان ثبت ذلك فلم يبقَ لنا سوى الاختيار بين افتراضين: (الاول) ان يكون تف (او تفت) اختصار خطيّ لفعل تُوُفِّي (اي تُوَفِّي او تَوَفَّى حسب لفظه الدارج). و (الثاني) ان يكون ذاك الفعل المرسوم في الكتابتين

١) قابل ايضًا علَمًا آخر من عين هذا الاصل وهو « الهديل » بن ربيعة من ولد الحارث بن مالك بن نضر (Wüstenfeld : *Reg.* 195). وان اخترتَ للعلَم الذي نحن بصدده مادة ه ذ ل (وهذا محتمل لموت لفظ حرف ذ الاصلي في افواه العامَّة) فمن الراجح ان يكون العلَم هذَل اصل « هُذَيل » المصغَّر المشهور

٢) لا محل هنا لفعل « تَفَّ » الذي معناهُ « بزق ». ولا اخال احدًا يرتأي ان تف هذه بافتعل تفل « تَفَّى » اي « تزوَّج الرجل بثلاث نسوة » على ما هو مدوَّن في امهات اللغة

الكتابات العربية الرابعة والخامسة والسادسة

عين فعل تُوُفي كما كان يلفظهُ سكان بلاد الحصن في مبادئ القرن الرابع للهجرة. والرأي الاول هو رأي الابوين لويس شيخو وصالحاني. والثاني رأي الابوَين لامنس ويوسف تاَتي. اما نحن وان لم نستصعب التسليم بامكانيَّة صحَّة الافتراض الاول لما هو معروف

من ورود بعض اختصارات في تآليف العرب مثالها صلعم (صلى الله عليه وسلّم) ورّح او رحه (رَحِمَهُ الله تعالى) وغير ذلك فاننا مائلون الى الافتراض الثاني اكثر منّا الى الاول. وذلك لاسباب منها: ١ً لانّ مثل الاختصار المذكور لم يُعثر عليه بعد في الكتابات الحجريّة القديمة المكتشفة الى يومنا (١) ٢ً لانهُ لا داعي يجبرنا على القول بانّ ناقش الكتابتين قصد حقيقةً حفر كلمــة مختصرة بل نقول بالعكس ان العامّي من الكتّاب لا يعمد الّا نادرًا الى مثل هذا التصرُّف الخطّي اذ من المقرّر انهُ يكتب عادةً اكثر ممّا ينبغي ايرادهُ خوفًا منهُ على العجز عن ابداء فكرتهِ. ٣ً لانّ لفظ فعــل « تفّ » (اي تفّى) عوضًا عن « توفّ » (اي توفّى) لا نراهُ مستحيــلًا لاسيما اذا قابلناهُ بما هو مشهور في هذه الديار السوريّة من تصرُّف العوامّ بعبــارة « بودّي » وتصييرهم اياها بُدّي. فان اعتُرض علينا بانهُ لا يجوز مثل هــذا الافتراض لورود فعل « تفّ » بمعنى « بزق » حتى في اللغة الدارجة. قلنــا ان ذلك ليس بمانع لاسيما في كلام العرب حيث تجد غالبًا معاني مختلفة بل متضادّة في مادّة واحدة. أفلا يحق لنا والحالة هذه ان نعتبر التصرُّف اللفظي الوارد في هاتين الكتابتين مثالًا جليًّا على ما طرأ على لغة العرب من التقلّبات القديمة التي لا يقدر معها الاديب على تمييز حقيقة الاصول وسردها اليقينيّ تحت اجناس معانيها المتباينة. غير انهُ كيفما كان الامر في الكلمة التي نحن بصددها فلا مانع يمنعنا من ان نفترض لها لفظًا آخر يزول معهُ كل الالتباس وهو « تُفّ » لا « تَفّ » فلعلّ اهالي الحصن كانوا هكذا يميّزون بالحركة بين معنى « مات » ومعنى « بزق » ولا يبعد ذلك عن الصواب لما قد سرّ بيانهُ من لفظ الكلمة « تُوفّى » عوضًا عن « تَوفّى » (٢

---

١) نكرر هنا ما قد ابديناه مرارًا باننا لا نملك كل المجموعات المحتوية على الكتابات العربيّة التي نشرها العلماء في المشرق والمغرب

٢) ومما يؤيد هذا الرأي ان صيغة المجهول ولو كادت تتوارى من افواه العامّة فهي ذلك لا شك انّما ابقت بعض آثارها لاسيما في تلفُّظ الذين حصلوا منهم على بعض الادب والتخرُّج كالناقش الذي تكلف صنع الكتابتين. ونريد هنا ملاحظةً لا يليق بالاديب ان يجاهلها وهي اننا عند بحثنا عن الامور اللغويّة المتعلّقة بلفاظنا من الآدميين قد اعتدنا ان نقابلها بما هو تحت الحسّ اليومي والتجربة الحالية. وهذه طريقة بدهيّة لا مناص لنا من سلوكها. غير انهُ ما ادركنا تمامًا ما قد كان في افواه القدماء واذهانهم من العِلَل والاسباب التي حملتهم على انواع التصرف اللفظي واللغوي وغير ذلك. فاذًا لا نقدر الآن على فهمهِ ورتّما لن نتوصل ابدًا الى شرحهِ الوافي

هذا وقبل التخلُّص الى الكتابة السابعة نختلف ثانيةً انظار قرائنا الكرام الى عظم شأن هاتين الكتابتين في معرفة تقلُّبات الخط العربي وضبط قوانينه (١ فضلًا عمَّا اوردناهُ من فائدتها اللغويَّة. فمنهما يتبيَّن جليًّا ضعف رأي العلماء الذين كانوا يظنون الى يومنا هذا ان الخط النسخي المعجم الحروف ظهر بغتةً في بلاد سوريَّة في غضون القرن السادس للهجرة (٢. غير انهُ لا عجب من زعمهم هذا فانهم لم يكونوا وقفوا على جميع المادَّيات العربيَّة المُكتنة في القرى الشاميَّة وبيوتات الاهالي الخصوصيَّة. وكنَّا قد أبدينا نظير هذا الرأي في شرح كتابتنا العربية الاولى عند بحثنا عن جهة دخول الكوفي المذيَّل الى القطر المصري وقلنا ان الاستنتاجات العامَّة لا تُقبل كقواعد مطَّردة ما دام مجهولًا قسمٌ معتبرٌ من آثار سوريَّة فيها ان اكتشافات الاب لامنس تثبت اليوم صوابيَّة ملاحظاتنا السابقة

ولئلا يُنسب الينا بعض المبالغة والغلوّ في كلامنا هذا احببنا ان ننشر هنا سلفًا كتابةً ذات ٩ اسطر مرسومة على صفيحة ضريحيَّة نُبشت حديثًا في دير بيت خشبو القريب من غزير من اعمال كسروان. وقد أُرسلت نسخة منها الى بعض الاعيان من مسلمي بيروت وهم تكرَّموا بإحالتها الينا مع طلب قراءتها. فلبَّينا دعاءهم وقرأنا الكتابة على خلل نسختها. واذا هي كتابة من القلم الكوفي المذيَّل الحسن الشكل وتاريخها سنة ٣٢٤ للهجرة ليس الَّا. اليك مضمون هذا الاثر الجديد

١ بسم الله الرحمن ٢ الرحيم هذا القبر لعبد ٣ القيم بن بركر (بزيكي ؟ (٣) بن محمد ابن ٤ هويني (؟) يشهد الَّا اله الَّا الله ٥ وان محمد عبده ورسوله صلى ٦ الله عليه وسلَّم مات في شهر (؟) ٧ رجب في سنة اربع وعشرين ٨ وثلث مائة سنة (؟ ثانية ؟) رحمهُ الله و ٩ رضي عنهُ

واذا بلغنا الرسم الطبعي الذي طلبناهُ من صاحب الكتابة اشهرناه في مجلَّتنا. والَّا

١) يعلم القرَّاء اننا عند كلامنا عن الخطوط العربيَّة لا نقصد عادةً الَّا البحث عن الخطوط الموجودة في الكتابات الحجريَّة وغيرها لا الاشارة الى اقلام الصحف (راجع الحاشية الثانية في الصفحة ٣٣ من السنة الحالية)

٢) V. Berchem : *Inscript. arab. de Syrie*, p. 455; JA 1891², p. 75

٣) وانما فضَّلنا هذه القراءة على غيرها لشيوع هذا الاسم بين أُسَر جبل لبنان العريقة في القِدَم. وكذا قل عن اسم « هويني »

فهي النسخة التي بين ايدينا كفاية لاظهار الحقيقة

وعند الختام تريد ملاحظة اخرى وهي انَّ البحث عن الخطوط العربيَّة لا يتمّ ولا يجدي فائدة علميَّة الَّا اذا امكننا الاطلاع على ما هو مجهول من كتابات بلاد ما بين النهرَين والجزيرة وغير ذلك من الاقطار الشرقيَّة التي استولى عليها العرب في ممرّ الدهور . قال ابن خلدون في مقدمته (طبعة باريس ٢ : ص ٣٤٣) :

« لمَّا جاء الملك للعرب وفتحوا الامصار وملكوا الممالك وتركوا البصرة والكوفة واحتاجت الدولة الى الكتَّاب استعملوا الخط وطلبوا صناعتهُ وتعلَّموهُ وتداولوهُ فترقَّت الاجادة فيهِ واستحكم وبلغ في الكوفة والبصرة رتبةً من الاتقان الَّا انها كانت دون الغاية . والخطّ الكوفي معروف الرسم لهذا العهد . ثم انتشرت العرب في الاقطار والممالك وافتتحوا افريقية والاندلس . واختطَّ بنو العباس بغداد وترقَّت الخطوط فيها الى الغاية لما استبحرت في العمران وكانت دار الاسلام ومركز الدولة العربيَّة . وخالفت اوضاعُ الخطّ ببغداد اوضاعَهُ بالكوفة في الميل الى اجادة الرسوم وجمال الرونق وحسن الرواء واستحكمت هذه المخالفة في الامصار الى ان وقع رايتها ببغداد على بن مقلة الوزير » (١

فوضوح هذا الكلام يُغنينا عن مزيد البيان وان لم يقصد المؤرخ الَّا الاخبار عن خطوط الصحف (٢ . فالمرجو اذًا من حضرات قرائنا الافاضل الساكنين في تلك الانحاء الشرقيَّة ان يتحفونا بما لديهم من الآثار العربيَّة ولهم الفضل

الكتابة العربية السابعة

عن تحف العاديات في كليَّتنا

لا حاجة الى الاسهاب في وصف هذا الاثر الجليل لوضوح الصورة التي اخذناها عنهُ . وهو من النحاس المزوَّق بالذهب والفضَّة يبلغ سمكهُ اكثر من ثلاثة ملليمترات فيهِ نقوش من الورد ترى بينها ثلاث كتابات اولها كتابة الصورة . ومضمون جميعها كما يلي :

---

١) مات هذا الوزير سنة ٣٢٧ هـ . (طالع ترجمته في تراجم ابن خلكان) فترى من تاريخ موتهِ ان كتابتي تنوورين نُقشتا في زمن التقلبات المذكورة في نصّ ابن خلدون

٢) بل نقول ان كلام صاحب المقدَّمة يليق بخطوط الكتابات اكثر منهُ بغيرها . فانَّ ما يذكرهُ عن ابن مقلة لا يُقبل الَّا بحصر المعنى على كُتَّاب ديوان الخلافة وغيرهم من موظفي الدولة العباسيَّة . لان الخط المعروف بالنسخي لا ينتمي الى ايَّام ابن مقلة فقط بل الى اوائل الاسلام كما اثبتهُ العلماء بما لا مردَّ عليهِ من البراهين . وسيأتي البحث عن هذه المسألة ان شاء الله

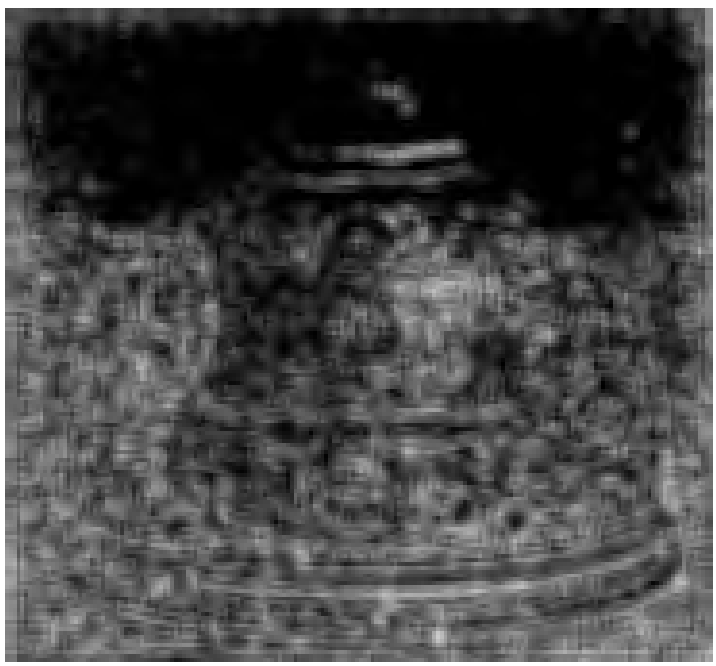

الكتابة الثانية

١ً الملك الناصر ٢ً المؤيد العالي ا ٣ً المؤيد الملك

لا نشكّ في كون هـذا الملك الناصر احد المماليك البحريين المشهورين نعني به السلطان الملك الناصر ناصر الدين والدنيا محمد ابن الملك المنصور سيف الدين قلاوون واخبار هذا السلطان معروفة . جلس على تخت الملك سنة ٦٩٣ هـ — ١٢٩٣ م وهو وقتئذٍ ابن سبع سنين وبعد سنة ملكَ الامير كتبغا الذي قد مرَّ الكلام عنهُ في شرح كتاباتنا العربية الثانية (المشرق ٣:٦٣٦) ثمَّ رجع الناصر متسلطاً سنة ٦٩٨هـ-١٢٩٨م الى سنة ٧٠٨ هـ — ١٣٠٨ م . فقام عوضهُ الملك المظفَّر ركن الدين بيبرس . غير انهُ لم يلبث الَّا سنة حتى استولى على التخت ثالثاً

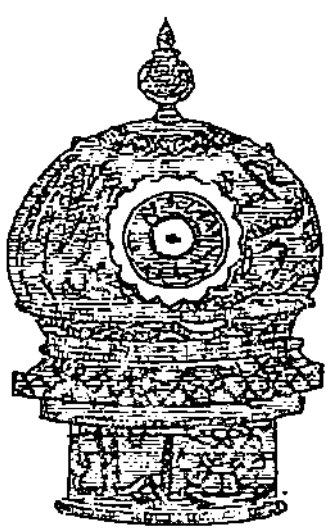

واستمرّ عليهِ الى سنة ٥٧٤١ — ١٣٤٠ م. ولن اردتَ تفاصيل اخبارهِ فعليك بمراجعة التآليف التي استشهدنا بها في ايرادنا اخبار السلطان كتبغا

ولهذا الملك الناصر كتابات عديدة نشر قسماً منها العلامة فان برخم في مجموعهِ المشهور برقم (CIA, n° 100) ورد ان الملك الناصر تكنّى بابي المعالي وهذه الصفة كما ترى توافق ما في القسم الثاني من كتابتنا اي « العالي ». وكلمة « المؤيّد » التي في القسم الثالث مشهورة ايضاً في الكتابات عند ذكر اسامي المماليك وصفاتهم. واما النعت الاخير اعني بهِ « المالك » فنظنّهُ عزيز الوجود. غير انهُ ليس الّا الكلمة الاولى من عبارةٍ تكثر ورودها في ايام المماليك وهي « مالك رقاب الامم »

ومن كلّ ما تقدّم نستنتج ان الأثر الذي نحن بصددهِ هو دون ريب من امتعة السلطان الملك الناصر (١. لكنّا لسوء الحظ لا نعرف في اي مكان وُجد. واما استعمالهُ فالراجح انهُ غشاء لحُقّة نفيسة توضع فيها العطور او ما شاكلها. ولمزيد الايضاح اضفنا تحت الصورة الاولى مثال حُقّة كاملة رسمها Collinot في كتابهِ المدوّن Ornements arabes, 1883, pl. 32 وبين الصورتين تشابه جليّ يغنينا عن اطالة الكلام (ستأتي البقيّة)

(فائدة) وردت الينا من قِبَل العلّامة كلرمون غنو رسالة جديدة تتضمّن ملاحظات مفيدة على الكتابات المنشورة في هذه المجلة منها انهُ عثر على ما يثبت قراءة اسم הדסר العلَم التدمري المؤنث المار شرحهُ (ص ٢٦١–٢٦٧) قال المؤلف الشهير: « قرأتُ على كتابة ضريحيّة لاتينيّة وُجدت في القنطرة من اعمال الجزائر (جنوبي القسطنطينيّة) (٢ اسم امرأة تُدعى Julia Palmyra. وقد اكتُشف هذا الاثر في جملة الكتابات العديدة التي نقشتها فرقةٌ من الجنود التدمريين الخادمين لدولة الرومان وكانوا قد اتخذوا ذاك المكان من قِبل القاصرة (٣. فالظاهر ان تلك المرأة كانت تدمريّة الاصل فيكون من ثمّ اسمها Palmyra عين العلَم الذي دوّنتموهُ في مجلتكم الغراء » ونحن نحيّ المراسل الفاضل على هذه الملاحظة التي يزول معها كل شك في امر ذاك العلَم التدمري

---

١) ومما يؤيّد قولنا هذا ان وجه المتاع يعلوهُ نوع من الزنجار (patine) الاسود السميك الدالّ على قِدَم عهد صنعهِ

٢) طالع L. Renier : *Inscript. rom. d'Algérie*, N. 1670

٣) راجع المشرق ١ : ٨٢٦